

نظم القرآن

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾

﴿ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾

[الجن : ١]

قال : اجلس !

قلت : ها قد جلست فماذا عندك يا ترى هذه المرة؟

مالي أراك تنظر إليّ ملياً صامتاً وكأنك تراني لأول مرة؟

قال هامساً : يملأني الأسى والشجن

قلت : ولم كل هذا؟

قال : قد صرت مني وصرت منك ، وأوان افتراقنا قد اقترب .

ربتُ على كتفيه قائلاً : لا تحزن ! فإننا ما نفترق إلا إلى لقاء ، وما نفترق إلا ونحن معاً ، وما كان خروجك مني ولا مفارقتي لك إلا لتلتقى بي وأتوحد بك .

قال في دعة : عسى أن يكون قريباً .

قلت : والآن قل لي : ما هذا النغم الذي أسمعُه ينساب ساحراً من بعيد؟

أظنه قرآناً يتلى .

قال : هو القرآن .

قلت : فمن أين تنبعث هذه التلاوة البديعة؟

قال : من غرفة مجاورة .

قلت : ولم لا نذهب إليه أو نحضره قريباً لنستمع إليه .

قال : لقد أبعدته عن أذني عامداً .

قلت : عامداً ! ولماذا؟

قال : أحاول أن أصل إلى السر

قلت : أى سر؟!

قال : سر هذه الموسيقى العذبة الساحرة التي تنبعث من القرآن .

قلت مبتسماً : وهل وصلت إلى السر؟

قال : مكثت طويلاً أستمع التلاوة من قريب وأقف عند آية آية أسمعها

وهى أمام عيني وأعيدها مرات ومرات أحاول أن أصل إلى مصدر هذه الأنغام
البديعة فلم أصل إلى شيء.

قلت : ثم ؟

قال : ثم قلت : فلأجرب طريقة أخرى . فأخذت أستمع إلى التلاوة من
أماكن متفاوتة البعد حتى اختلفت تفاصيل الكلمات والحروف ومازالت الأنغام
هى هى تتدفق وتسيل جمالاً فى الأذن وراحة فى النفس .

قلت : ووصلت إلى مصدرها ؟

قال : إن متعتى بهذه الأنغام الرخية وصفاء نفسى معها وما تسكبه فيها من
راحة وسعادة ليغنينى عن إجهاد عقلى فى مصدرها أو سرها . فأنا أو قن
بوجودها إيقانى بوجود نفسى .

قلت : سبحان مغير الأحوال ! فقد تنازلت عن الفهم إذأ ؟!

قال ضاحكاً : وأنت لا تريد أن تكف عن استشارتى ! لا . لم أتنازل . لكنى
أظن الأمر عسيراً عويصاً .

قلت : عسيراً عويصاً مرة واحدة !

قال : أحسبني على معرفة بالموسيقى وما ينشأها من إيقاع وتوقيع ونظم بما
يجعلنى أعرف مصدرها إن كان لها ثم مصدر .

قلت : فردنى بياناً .

قال : الموسيقى – أى موسيقى – إنما تنشأ من وجود نظام صوتى تتابع فيه
المقاطع أو الجزئيات الصوتية المختلفة مرتبة فى تناسق وانسجام وعلى مقادير
متناسبة وفى أزمنة أو وحدات زمنية متكافئة . وكل ذلك يتكرر فى كل وحدة
من وحدات النظم لتعطى هذه الوحدات المتتابعة وحدة كبرى ، تعرف فيها الأذن
الانسجام والتناسق فى كل وحدة والتكرار المنظم فى الوحدة الكبرى وتحس بها
النفس الراحة والجمال والانتشاء . فراحة النفس فى النظام وتشتتها فى الفوضى .
وما الجمال – كما يقول المفكرون والفلاسفة – إلا التناسق والانسجام والنظام .

قلت : الآن فهمت !

قال : ماذا فهمت ؟

قلت : فهمت ماذا تعنى الأذن الموسيقية ؛ تلك التى أسمعها ولا أعرف المقصود بها . هى إذن الأذن القادرة على تمييز انسجام وتناسق المقاطع الصوتية والتقاط النظام المتكرر لهذه المقاطع فى وحدة جامعة .

قال : تماماً . وهى الأذن التى اعتادت هذا التناسق والانسجام ، فيمكنها عند سماع مقطوعة صوتية أن تلتقط أى مقطع صوتى خارج عن نظامها أو يخل بتناسقها وانسجامها . وهى الأذن التى يصيبها اختلال النظام الصوتى بالنفور تسكبه فى النفس إغراضاً وصدأً .

قلت : يبدو أن هذا يومك !

قال مبتسماً فى جدل : أخيراً !

قلت : فقل لى : هذا الانسجام فى المقاطع الصوتية والتناسق بينها فى وحدة واحدة ، وهذا التكرار المنظم للأصوات الذى تنشأ به الموسيقى من أين يأتى وكيف يكون ؟

قال : لا أظن ذلك يخفى عليك . أم تريد اختبارى ؟

قلت مبتسماً : بل أريد سماعك .

قال : هذه الموسيقى وهذا التناسق والانسجام إما أن يأتى من ميزان توزن به وعليه الأصوات تتنوع فيه المقاطع الصوتية تنوعاً مقصوداً متناسقاً تتوالى فيه الحروف وأصواتها فى ترتيب ونظام متكرر .

قلت : موسيقا الشعر .

قال : نعم . فما موسيقا الشعر إلا ميزان تتوالى فيه الحروف وتنضبط به مقاديرها الزمنية . وما هذه الحروف إلا أصوات متتابعة فى نظام ودقة متنوعة بين الحركة والسكون ، وبين القصر والمد ، وبين صفات الحروف المختلفة ومخارجها ، فإن

كان الشعر مقفى زادت القافية – التى هى حروف أى أصوات متشابهة متكررة –
الموسيقا والنظم وضوحاً، وإن لم يكن مقفى انبعثت فيه الموسيقا من هذا النظام
الداخلى وحده .

قلت : هذه إما . فماذا عن الأخرى؟

قال : وإما أن تنشأ الموسيقى من الآلات يوقع عليها فى نظام وتناسق
وانسجام يخرج أصواتاً بهذا النظام والتناسق والانسجام .

قلت : فكيف يكون النظام والتناسق والانسجام بلا ميزان؟

قال : بل بميزان . هو المقادير الزمنية للنغمات وتتابعها فى تنوع منظم دقيق
بين المقاطع الصوتية التى تقابل الحروف فى الشعر . ويمكنك أن تقول : إن الشعر
هو موسيقا تنبعث من أصوات الحروف ، والآلات تبعث موسيقاها من أصوات
النغمات . والحروف كالنغمات : هذه أصوات وتلك أصوات . ومصدر الموسيقا
فيهما واحد ، هو وضع الأصوات فى كلِّ فى نظام زمنى وتنوع تناسق فيه صفات
الصوت أو النغمات وموقعها فى الأذن تعطى تجانساً تعرفه الأذن وتهتز به النفس
وتنتشى .

قلت : ألم تهتد إلى شىء من ذلك فى النظم القرآنى تفسر به أنغامه الرخية
وموسيقاه العذبة التى تأسر الأذن وتستميل النفس؟

قال : الأمر – كما أخبرتك – صعبٌ عسير ، فهذا نظم لا تخطئه أذن
اعتادت التناسق والانسجام ، وألحان سماوية لا تملك النفس إلا أن تميل إليها . ومع
ذلك فلا يوجد ثم أداة توقع ،، ولا ميزان توزن عليه الحروف والكلمات لتعطى
تناسقاً ونظاماً يبعث هذا النظم وهذه الموسيقا ، بل ولا ثمة نظام فى رصف
الحروف وتنسيقها يمكن أن تضع يدك عليه وتقول : هذا هو مصدر الموسيقا
العذبة والأنغام الخلابة . فالموسيقا موجودة بغير ميزان ، والأنغام بائنة ومصدرها
خفى .

قلت : أتعرف أن هذا سر من أسرار الإعجاز؟

قال : قد فطنت إلى هذا بعد جهد. ونظر وطول مراجعة لما كان بيننا،
وفهمت السرفيه . فلو كان لهذه الموسيقى القرآنية والألحان السماوية ميزان يأتي
بها كميزان الشعر أو نظام واحد محدد تنبعث منه لكان في الإمكان معرفته ثم
تقليده والسير على نهجه . ولأنه معجزة فهو معجز في كل شيء . ومن إعجازه
إعجازه للبشر أن يأتوا بمثل نظمه وموسيقاه .

قلت : تماماً . فموسيقا القرآن مصدرها فيه وتنبعث منه ولا باعث لها من
خارج تركيبه، فلا أداة ولا ميزان ولا قانون لها يمكن معرفته والنهج على منواله،
بل ولا معرفته معرفة تامة والاحاطة به كاملاً . ومع ذلك فنظمه وموسيقاه
متجانسة لا تحس فيها الأذن الموسيقية التي ذكرتها نشاراً ولا النفس صدأً أو
إعراضاً .

قال : هذا صحيح . ومع ذلك ..

قاطعته قائلاً : ومع ذلك ماذا؟

قال مبتسماً : انتظر وتمهل . ألم تقل إنه يومي؟ فلا تجر على فيه .

قلت : ها أنا مصغ .

قال : ومع عسر وصعوبة بل واستحالة الوصول إلى مصدر هذه الموسيقى
الخلاية التي لا قواعد لها، فهناك بين مصادرها الخفية المبتوثة في القرآن أشياء
تفسر بعضاً من هذه الموسيقى، وإن كان تفسيراً جزئياً لا يفي بحقيقتها ولا
يكافئها .

قلت : فقل وتمهل مترفقاً بي، فكما قلت : الأمر عسير عليك وأنت صاحبه

فما بالك بي؟

قال : خطوة خطوة . أظنك لا تجهل معنى تجويد القرآن .

قلت : إخراج كل حرف من مخرجه مع إعطائه حقه ومستحقه .

قال : دعك من هذه التعريفات التي تصيبني بالعي، وقل لي : ماذا يعني أن

يقرأ القارئ القرآن مجوداً؟

أطرقت قليلاً ثم قلت : معناه أن يقرأه كما يجب له أن يُقرأ .

قال : وكيف يعرف ذلك ؟

قلت : بتعلم قواعده من العلماء به ، أو بالسماع ومتابعة من يقرأ قراءة صحيحة وتقليده فيها .

قال : وكيف عرف هؤلاء أيضاً ؟

قلت : كلٌّ عن سابق له فى سلسال طويل متواصل ينتهى بالصحابة القراء ثم النبى عليه الصلاة والسلام .

قال : والنبى ﷺ ؟

قلت : كما علّمه جبريل عليه السلام .

قال : ها قد وصلنا إذاً ، فالقارىء حين يقرأ القرآن كما يجب له أن يُقرأ فإنما هو يقرأه كما جاء به جبريل ، وبصفاته التى علمها للنبى عليه الصلاة والسلام . فهو حين يقرأ حرفاً ، وحين يقصر أو يمد ، وحين يظهر أو يخفى أو يدغم ، وحين يغن أو لا يغن ، وحين يهمس أو يقلقل أو ... أو ... فإنما هو يفعل ذلك كله لا من عند نفسه ولا على هواه ، وإنما يلتزم أحكاماً لا يمكنه الخروج عليها ولا تركها ولا التبديل فيها . وهذه الأحكام هى صفات القرآن الصوتية التى أنزله الله عز وجل بها .

قلت : تماماً . وإذا لم يلتزم أحد هذه القواعد فى تلاوته فقراءته خاطئة إن كان جاهلاً وتنتفى عنها صفة القرآن إن كان عامداً .

قال : إذاً فموسيقا القرآن تكمن فى أحكام التجويد هذه والتزامها ، لأنها هى التى تجعل القراءة قرآناً وبها أنزله الله عز وجل .

قلت : فأنت ترى أن مصدر هذه الموسيقا هو أحكام وقواعد قراءة القرآن ؟

قال : نعم . فالقرآن بدونها لا يكون قرآناً وإن كان كتاباً . فهى التى تمنح الكتاب صفاته الصوتية ليصير قرآناً . وقراءة الكتاب دونها لا تجعله قرآناً .

قلت : لم تزد على أن فسرت الماء بعد جهد بالماء! هذه الأحكام هي كل القرآن، كلماته وحروفه، فكأنك قلت : إن مصدر موسيقا القرآن هو القرآن!!
قال : يا قليل الصبر! أما قلنا خطوة خطوة؟ نعم : هذه القواعد والأحكام هي كل القرآن، لكن المسألة هكذا تكون أيسر قليلاً . فإن لم نستطع الوصول إلى مصدر البناء الموسيقي للقرآن فيمكننا أن نطمح إلى معرفة بعض عمدته وأركانه . نظرت إليه طويلاً ثم ابتسمت قائلاً : ماذا كنت تفعل فيما أنت غائب عني؟

قال مبتسماً : أليس يومي؟! ستري .

أول مصدر لهذه الموسيقى لا تخطأه أذن واعية هي المدود .

قلت : المدود؟!

قال : نعم المدود . مد الصوت بحروف المد : الألف والياء والواو . فهذه الحروف لا تعطى صوتاً له معنى بذاته، وإنما تعطى صوتاً ممدوداً هو انتقال بين صوت حرف وصوت حرف آخر . وهذا الصوت الممدود هو نغم في نفسه .

قلت : لعل ذلك لجمال صوت من يقرأ .

قال : لا . بل هو نغم جميل في نفسه لا يحتاج إلى جمال صوت . فقط أن يقرأ صاحب الصوت كما يجب أن يُقرأ . ألا ترى أن من يغنى ليطرب من حوله يزيد من حروف المد ليزيد وقع النغم على الأذن والنفس .

اقرأ : ﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ ، ﴿ الم ﴾ ، ﴿ جاءت ﴾ ، ﴿ يشاء ﴾ ، ﴿ تبوأ ﴾ وغيرها

كثير مما هو مبثوث في القرآن ...

قلت : ﴿ الْحَاقَّةُ ﴾

قال : فتأمل وأنت تقرأ هذه المساحة الزمنية التي يشغلها المد أو هذا الصوت الصامت وستجدها نغماً خالصاً .

قلت : ﴿ الْحَاقَّةُ ﴾ . يبدو أن ما تقوله صحيح . فهو فعلاً نغم خالص .

ولكن هذه المدود الطويلة ليست هي كل مدود القرآن .

قال: ولكنك ستجدها موجودة في كل آية أو بضع آيات على الأكثر.

قلت: فليكن!

قال: فضع إلى جوارها المدود الطبيعية التي تعطى نغمة قصيرة بقدر

حركتين.

قلت: مثل؟

قال: يعلمون، السلام، الذي، عبادى.

قال: فستجد أنك أمام نوعين من المدود - النغمات: نغمات طويلة وأخرى

قصيرة.

وجزء من موسيقا القرآن يأتي من توزيع هذه النغمات في كلماته وآياته

توزيعاً تعرفه وأنت واع بها مدرك لها.

والإعجاز أن هذا التوزيع بلا نظام ثابت ولا قانون يسير عليه وإنما هو يتنوع

مع المعنى، وفي تناسق مع الفواصل ومصادر الموسيقا الأخرى. وقمة الإعجاز أن

هذا التوزيع لا يؤثر في إحكام المعنى واتساقه بل هو جزء منه. فالمعنى يأتي

محكماً وحاملاً لموسيقاه في داخله في الوقت نفسه. فالمعنى يدخل إليك من باب

عقلك والموسيقا تعضده من باب أذنك.

وقبل أن أنتبه من معنى كلماته خرج ثم عاد بعد قليل وقال: الآن استمع

واشحن أذنك وتنبه، وسترى أنه ما من قطعة من القرآن تخلو من هذه المدود -

النغمات الطويلة تزن المدود الطبيعية القصيرة لتعطى نظماً موسيقياً متمسكاً.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي يَدَيْهِ أَنْفُسِكُمْ أَوْ

تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ * آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ

وَمَلَائِكَتِهِ (ي) وَكُتُبِهِ (ي) وَرُسُلِهِ (ي) لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (ي) وَقَالُوا

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿ [البقرة ٢٨٤ - ٢٨٥].

قال: لو أحسنت الاستماع لما أخطأت هذا النغم الصافي المنبعث من هذه المدود الطويلة التى تأتى كنغمات طويلة بين المدود والنغمات القصيرة المتتالية فى حروف المد الطبيعى .

قلت: ولكنها تأتى غير منتظمة ولا على نسق واحد، فقد تحتشد فى آية وتقل فى أخرى .

قال: هذا صحيح، لأنها تأتى متناسقة مع مصادر للموسيقا أخرى، فتحتشد حيث تقل، وتقل حيث تكثرتعطى فى النهاية قطعة واحدة موحدة متناسقة متجانسة لا تخطأ نظامها أذن وإن اختلفت مصادر هذا النظام والتجانس وما تنبعث منه .

قلت: هذا بديع! فماذا بعد المدود؟

قال: بعد المدود الغنن .

قلت: فهذه أعلمها . فالغنة صوت منغم يخرج من الأنف، فهو نغم بطبيعته وتعريفه .

قال: أظنك لا تجهل أن هذه الغنة التى هى نغم صاف مراتب .

قلت: بلى هى مراتب، فأعلاها النون والميم المشددتان، فغنة الإدغام، فالإخفاء ثم الإظهار . وفى حرفى الميم والنون غنة ونغم طبيعى ولو لم يكونا مشددين .

قال: تماماً، وجزء من موسيقا القرآن المتجانسة يأتى من هذه الغنن الكامنة فى صفات الحروف وأحكام تلاوتها فى القرآن، والتى توزع توزيعاً متناسق فيه النغمات القوية فى الغنة الثقيلة مع النغمات الخفيفة فى الغنة الضعيفة وما بينهما فى نسق يكون بنياناً صوتياً متجانساً فى الأذن تحس فيه الأذن التناسق والنغم وتهتز بأثره النفس . استمع إلى هذه:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ

يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿ [الفرقان: ٦٣ - ٦٦]

قلت: وصف لعباد الرحمن جميل.

قال: فانظر إلى الآيات تجدها تخلو من المدود الطويلة التي تعطي أعمدة صوتية من النغم بين المدود والنغمات القصيرة.

قلت: هذا صحيح.

قال: ومع ذلك فمو سيقاها عذبة آسرة، ومصدرها هو هذه النغمات المختلفة الشدة الصادرة عن الغنن المختلفة الدرجة والموزعة في تناسق وانسجام آخذ للأذن أسر للنفس.

قلت: النغمات الثقيلة الواضحة في إدغام نون التنوين في الواو بعدها في: ﴿ هَوْنَا وَ ﴾، ﴿ سَجْدًا وَ ﴾، ﴿ مُسْتَقْرًا وَ ﴾ وفي النون المشددة: ﴿ عَنَّا ﴾، ﴿ إِنَّ ﴾، ﴿ جَهَنَّمَ ﴾، ﴿ إِنَّهَا ﴾.

قال: وجمال هذه الموسيقى ليس في النغمات الثقيلة الواضحة فقط، بل في تبادلها وشدها وتضفيرها بالنغمات الخفيفة في النونات والميمات غير المشددة، وإيقاعها العذب الذي يجعل هذه الموسيقى تصدر من أعماق نفس قارئها في هذه الفاصلة من المد الطبيعي النغمي في الألف المنبعثة من حنايا النفس تتلوه الميم ذات الغنة، فألف مد أخرى. فهذه الفاصلة إلى جوار مصادر الموسيقى القرآنية الأخرى كأنها توقيع صوتي يضبط النظم القرآني ويعطيه مساحات زمنية نغمية متناسقة تزيد الإيقاع نفاذاً في الأذن وتحريكاً للنفس وبعثاً لكوامنها. أتعرف أن هناك آية يكاد يكون مصدر الموسيقى القرآنية فيها خالصاً لهذه الغنن.

قلت: وما هي؟

قال: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ (ن) مِنَّا وَبَرَكَاتٍ (ن) عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّمِ

(ن) مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ (ن) سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ (ن)
الِيمٌ ﴿ [هود: ٤٨] .

فكما ترى الآية تمتليء بالغن في أعلى درجاتها لتعطي نغمات في أعلى شدتها. تأمل ﴿ أُمَمٍ (ن) مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ فستجد فيها ثلاث غنن ثقيلة قوية إلى جوار الغنن الأخرى: ﴿ مِنَّا ﴾، ﴿ ثُمَّ ﴾، ﴿ يَمَسُّهُمْ مِنَّا ﴾، وغنة الاخفاء في ﴿ وَأُمَمٍ (ن) سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾. فالآية بهذه الغنن تعطي نغماً عالياً فكانها تحتوى نوحاً عليه السلام وتجتذب أذنه لتلفته عما عاينه من هول وضياع لابنه إلى ما صار إليه وما يجب عليه أن يبدأ فيه.

قلت: فكان هذه الموسيقى القرآنية تنوع أيضاً مع المعنى؟

قال: وهل عندك في ذلك شك؟! هي ترق وتلين إذا كانت الآيات دعاءً ضارعاً أو موقفاً مؤثراً لتشارك المعنى إحداث الأثر في النفس، وهي تسمو وتصفو إذا كانت وصفاً للرحمن، وهي تعلو إذا كانت الآيات تعقيباً، وهي تشتد حتى تصير كدقات طبول الحرب عندما تصبح الآيات إنذاراً وتهديداً. وأما مصدر هذه الأنغام الساحرة فهو...

تشاءبت قائلاً: أما قلنا خطوة خطوة؟! فلو حشدت لى كل شىء مرة واحدة كيف أفهمه ومن أين لى استيعابه؟! انتظرنى حتى أراجع ما قلت وأسمعه من جديد وأتأمله على مهل.

ثم ابتسمت قائلاً: وليكن لك يوم آخر.

ضحك قائلاً: فليكن لى عليك يوم آخر.

* * *

قلت: ما هذه الأوراق الكثيرة التى تحملها معك؟

قال: هذا ما سجلته مما دار بيننا.

قلت: ولم أحضرته معك؟

قال : لأتمه اليوم . ثم التمعت عيناه بعبرة يخفيها وقال : آن الفراق .

قلت : أو آن اللقاء .

هيا أخبرنى ماذا عندك اليوم؟ ولكن انتظرا! قبل أن تخبرنى بما عندك فإنى متعجب!

قال : ومم تتعجب؟

قلت : إن الموسيقى القرآنية التى ذكرت أنها تنبعث من المدود وتبادل الطويلة فيها مع القصيرة، ومن الغنن وتوزيع الثقيلة فيها بين الخفيفة والمتوسطة لتحيرنى .

قال : وما الذى يحيرك فيها؟

قلت : إن هذه المدود المتتالية، والغنن المتتابعة ليس لها نظام تسير عليه، ولا قاعدة أو قواعد تتبعها، ولا قانون يحكمها . والعجيب أنه رغم عدم وجود النظام والقواعد والقانون، والذى يجعل المرء يظن وجودها عشوائياً بلا قصد لها فى موضعها وأماكنها، فإن ترك غنة فى موضعها، أو قصر ما حقه أن يمد يحدث اختلالاً فى النظم لا تخطأه الأذن .

قال : هذا صحيح . وقد جربت ذلك أنا نفسى فوجدت الموسيقى وجمال النظم يأتى من توزيع المدود بأطوالها والغنن بدرجاتها كما هى، وأى حذف أو إسقاط أو قصر تختل به الموسيقى وتذهب روعة النظم فى الأذن وأثره فى النفس . وقد حاولت ما حاولت ولم أجد لذلك تفسيراً ولا تعليلاً، فالنظم موجود بغير نظام، والموسيقا بغير قواعد ولا ميزان . ومع ذلك فالموسيقا لا تكون والنظم المتجانس لا تراه إلا بوجود المدود والغنن كما هى دون تبديل ولا تعديل .

فيمكنك أن تقول : إن هذه الموسيقى والنظم هى سبيكة صوتية أو وحدة صوتية واحدة، جمالها فى نظامها، ونظامها هو هى كما هى .

قلت : فهو نظام، ولكنه نظام خاص متفرد جاء مرة واحدة .

قال : ولا وسيلة لمعرفة وجود هذا النظام الخفى إلا باختلاله إن بدلت أو

غيرت ، وعودته إن عدت .

قلت : فهذه أعجب ! فإذا كانت الموسيقى القرآنية والنظم لا تأتي إلا من توزيع مصادرها في هذه السبيكة الصوتية كما هي وبنظامها التي هي فيه، فكيف ركب هذا النظام الفذ الذي لا يحتمل التغيير والتبديل على هذا الإحكام والتناسق الخارق في الكلمات ومعانيها وإيحاءات العبارات وإشعاعها .
قال بصوت عميق : كيف ركب هذا النظام الصوتي على هذا الإحكام والتناسق الخارق ؟

قلت : نعم . نحن الآن أمام إحكام وتناسق خارق في المعاني يأتي من اختيار معجز للألفاظ والكلمات، وتراكيب فريدة للعبارات والآيات، فإذا أسقطت كلمة أو قدمت أو أخرت اختل المعنى وذهب إحكامه وتفكك نسيجه .
وفي الوقت نفسه نحن أمام موسيقا خلابة ونظم بديع لا يأتي إلا من وجود الأصوات وتوزيعها كما هي، فإذا غيرت أو بدلت أو تجاهلت ذهبت الموسيقى وانحل النظم .

ففسر لي بالله عليك : كيف اجتمع هذا مع ذلك؟ وكيف اتفق اختيار الكلمات ونسجها لتعطي المعنى إحكامه مع توزيع الأصوات وتنسيقها لتعطي للنظم موسيقاه وجماله؟
قال : ليس أمامنا إلا حل من اثنين : إما أن تكون المعاني بألفاظها جاءت أولاً ثم صيغ لها هذا النظم الصوتي أو أن يكون النظم والتجانس الصوتي هو الأول والمعاني اختيرت له لتلائمه ... أو ...

قلت : أو ماذا؟
قال : أو هما معاً . ثم علا صوته في حماس قائلاً . نعم : هما معاً . هذا هو الحل . القرآن ليس سبيكة بنظمه وصوته وموسيقاه، ولا سبيكة بكلماته وآياته ومعانيها، ولكنه سبيكة بهما معاً، وهما ممتزجان فيه معاً ولا فصل لأحدهما عن الآخر، فهو كله كما هو .

قلت : نظرية معقولة !

قال : معقولة فقط!؟

قلت مبتسماً : معقولة جداً! فقل لى الآن : ماذا فى جعبتك؟ فإنى فى شوق لاستكمال نظريتك هذه المعقولة جداً.

قال : مما لا تخطأه أذن ولا عين من مصادر موسيقا القرآن ونظمه الصوتى الجميل الفواصل .

قلت : فواصل الآيات!؟

قال : تماماً . فهذه الفواصل هى مقاطع صوتية متماثلة متكررة فى آيات السورة الواحدة أو عدة آيات منها .

قلت : فهى تعطى نظاماً صوتياً متناسقاً .

قال : وهذه المقاطع الصوتية المتماثلة الخاتمة للآية والآيات تعطى إيقاعاً عذباً فى الأذن مؤثراً فى النفس ، خاصة مع الفواصل التى اختارها القرآن .

قلت : الفواصل التى اختارها القرآن!؟

قال : لو تأملت لرأيت أغلب سور القرآن تنتهى آياتها بالنون أو الميم بعد حرف مد أو بالألف .

قلت : وماذا يعنى هذا؟

قال : يعنى أن القرآن يحدث الموسيقى والنظم السالب للأذن بفواصل مقصودة لا يكتفى فيها بتكرار المقاطع الصوتية الذى يعطى موسيقا بالنظام والتشابه الصوتى ، وإنما يجمع إليه أن هذا التكرار والإيقاع الصوتى هو بالمد الذى هو نغم خالص ، والنون والميم التى تعطى نغماً بطبيعة صوتها .

قلت : فهو قد جمع فى هذه الفواصل الإيقاع بالنظام والتكرار إلى الموسيقى بالنغم فى المد والغنة الخفيفة فى الميم والنون .

قال : ولذلك تحس وأنت تقرأ - كما يجب أن تقرأ - أو تسمع أحداً يقرأ - كما يجب أن يقرأ - أن هذه الفواصل إيقاع صاف وموسيقا خالصة لا مجرد أصوات متتابعة . استمع إلى هذه ...

﴿ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [طه: ١ - ٨].

ثم استمع إلى هذه أيضاً:

﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١ - ١٣].

قلت: إني لأحس وكأني أهتز من أعماقي.

قال: وسر ذلك هذه الألف التي هي إلى جوار كونها نغماً خالصاً هي حرف جوفى يخرج من جوف الإنسان، فكأنها نغم صادر من أعماقه يحركها وينبعث منها. ولهذا فما يزيد عن ثلاثة أرباع آيات القرآن ينتهي إما بالألف وإما بالنون والميم بعد مد.

قلت: لتكون الآيات تابعة من أعماق الإنسان من منبع الطاقة الكامنة في نفسه.. لكن قل لي: لو كانت نظريتك هذه المعقولة صحيحة وهذه الفواصل فقط هي التي تحدث نغماً جميلاً ونظماً سالياً للأذن ينبعث من النفس ويتدفق فيها، فمالي أرى سوراً كاملة تنتهي آياتها بفواصل لا أثر فيها للألف ولا للنون أو الميم كسورة ق والقارعة والمسد وغيرها كثير.

قال مبتسماً: أصبحت أنت الآن الذي تعترض وتشكك!

قلت: أيها المشاكس! أبعث أن فهمت أنت تضن على بالفهم؟

اتسعت ابتسامته ثم قال : دعنى أقتص لنفسى وأخذ بعض حقى منك .

قلت : أمرى إلى الله . خذ بحقك ما شئت ثم تكلم .

قال : لو نظرت إلى السور والآيات التى ذكرت ، لرأيت فواصلها تحدث نظماً وموسيقاً ولكنها موسيقاً من نوع خاص .

قالت : نوع خاص !؟

قال : هذه السور والآيات إنما جاءت فى مقام تحد للمشركين وإنذارهم وتهديدهم .

قلت : فليس المراد سلب الأذن بجمال النظم والنغم ، ولا هز النفس بالموسيقا الرخية الحانية .

قال : تماماً . وإنما المراد قرع آذان المشركين بأصوات شديدة قوية تحس فيها نفوسهم هول التهديد وترويع الإنذار فى الوقت الذى تدركه عقولهم من الكلمات ومعانيها .

قلت : فيتحد أثر الفواصل القارع للأذن كدقات طبول الحرب فى النفس مع المعنى الذى تحمله الآيات إلى العقل .

قال : عليك نور! ولذلك تنتهى أمثال هذه الآيات غالباً بفاصل قصيرة تعرف فيها الأذن الحسم والحزم الذى يتناسب مع التهديد والترويع . وقد ينتهى بعضها بحرف من حروف القلقلة التى تتحرك فى مخرجها محدثة دويماً تعرف فيه الأذن وتسكب إلى النفس إيقاع دقات إعلان الحرب .

استمع إلى سورة المسد ...

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا
ذَاتَ لَهَبٍ * وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد :
١ - ٥] .

قلت : يبدو أن ما تقوله صحيح ، فالفاصلة قصيرة حاسمة باترة لا أثر فى الصوت الذى تحمله لحن أو لين .

قال : وفيها إلى الحسم والقطع والبتر قلقلة وانفجار الباء وقلقلة الدال التي تجعل صوت الوقوف على الحرف بالضبط كدوى دقة طبول الحرب .

قلت : إعلان الحرب على من آذوا رسول الله ﷺ وكادوا له .

قال : وهذا القصر والحسم في الفاصلة ، وهذا الدوى الذى يصم الآذان والقرع فى الحرف الذى تنتهى به الفاصلة هو جمالها وروعتهها . فهى موسيقا تجسد المعنى بإيقاع الصوت وتشاركه إحداث الأثر .

قلت : فلو جاءت الفاصلة حانية رخبة أو ضارعة كفواصل طه أو الرحمن لجلبت راحة وانتشاء للنفس فى مقام يراد فيه ترويعها .

قال : وعندها لأصبحت الموسيقى والفاصلة فى واد والمعنى الذى تحمله الآيات فى واد آخر، كمن يدير لحناً جنائزياً حزيناً فى زفاف عروس أو العكس .

قلت : فكأن الإيقاع والنظم والفاصلة تأتى متجانسة مع المعنى مؤازرة له؟

قال : بل هى جزء منه حامل له، تخاطب النفس بأثر المعنى مباشرة عن طريق الأذن فى الوقت الذى ينفذ هو إليها من باب العقل . أتريد أن تتيقن؟

قلت : وكيف أتيقن؟

قال : قد تجد فى السورة الواحدة الفاصلة تتغير من واحدة لأخرى ومن إيقاع لآخر مع تغير المعنى أو الجو العام الذى تحمله الآيات . ويكون هذا التغير فى الفاصلة موافقاً للمعنى متحداً به : إن لان رقت وإن عنف اشتدت .

قلت مبتسماً : إن لك لشأناً! أين كنت تخفى كل هذا عنى؟

قال ضاحكاً : لطالما حيرتنى .

استمع إلى سورة الضحى ...

﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَاللَّآخِرَةُ

خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى

* وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا

السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿ [الضحى : ١ - ١١] .

قلت : حقاً! إن فيها أكثر من فاصلة . لكنى لا أفهم السرفى تغييرها .

قال : تعرف ! أنت الذى نبهتنى إلى هذا السر .

قلت : أنا؟!!

قال : بحديثك عن الكاف المحذوفة التى بها يزداد المعنى إحكاماً وجمالاً
والنظم عذوبة وجمالاً .

قلت : هذا أعرفه . لكن ما علاقة الفاصلة بالمعنى ، والآيات بعد ذلك تتغير
فيها الفاصلة فتصبح راء وئاء بلا مد؟

قال : الآيات الأولى من ﴿ وَالضُّحَى ﴾ إلى ﴿ فَأَغْنَى ﴾ تخاطب النبى
عليه الصلاة والسلام لتزيل عنه الهم وتطمئن قلبه إلى عناية ربه به وما أعده له
فى الآخرة ، وما سوف يعطيه له حتى يرضى ، وتذكره ليوقن بهذا الرضى بإيواء الله
له من يتم وهدايته من الضلال وإغناؤه من العيلة .

قلت : فالآيات كلها رفق ودعة وحنان .

قال : ولذلك جاءت الفاصلة بهذه الألف اللينة الحانية المنطلقة بصوتها من
الأعماق الذاهبة إليها ، وفيها المد الذى يعطى نغماً رخياً تهتز به النفس حين
ينبعث منها ويعود إليها اهتزاز الراحة بهذا الرفق والاطمئنان والانتشاء بهذه
الرفقة وهذا الحنان .

قلت : فلماذا غيرت الفاصلة بعد ذلك وتركت هذه الألف اللينة العذبة
الجميلة التى تطرب لها الأذن وتهتز بها النفس والخطاب كما هو للنبي عليه
الصلاة والسلام؟

قال : لأن الآيات تركت الحنان والرعاية والعناية إلى الأمر ﴿ فَلَا تَقْهَرْ ...
فَلَا تَنْهَرْ ... فَحَدِّثْ ﴾ ، فتركت فاصلة العناية والحنان وتحريك النفس إلى فاصلة
الأمر والنهى .

قلت : واختفى صوت عذوبة المد ورقته إلى صوت حروف حاسمة ليس فيها

دعة .

قال : لأن هذا أمر ونهى إلهى لا أمر لأحد معه – ولو كان نبيه المصطفى – إلا الامتثال والطاعة، يعرف عاقبة الخروج عليهما فى الحسم والحزم وزوال العزوبة واللين والرقّة .

قلت : فهذه الفواصل هى جزء من المعنى تحمله بإيقاعها ووقعها الصوتى فى الأذن وأثره فى النفس .

قال : تماماً، وبها يكون المعنى سارياً فى الصوت الذى يحمله ينفذ به إلى النفس مباشرة من الأذن، ويكون النظم هو التجسيد الصوتى للمعنى فى الأذن . فالنظم الصوتى والمعنى يسريان فى امتزاج كامتزاج الماء بالأعواد الخضراء .

قلت : وإذا هذه الفواصل المقاطع الصوتية المنتظمة هى التى تحدث الإيقاع مع النغم الخالص فى المدود والغن بدرجاتها المختلفة .

قال : فهذه هى أعمدة الموسيقى القرآنية وأركانها .

قلت : نظريتك هذه معقولة جداً لكنها خداج، فالمرء حين يتلو القرآن أو يسمعه يحس عزوبة وجمالاً صوتياً منطلقاً فى خلافة أثناء الانتقال من حرف إلى حرف داخل الكلمات وبينها ولو لم تكن فى الكلمة غنة ولا مد ولا هى من الفاصلة . استمع إلى أطول آية فى القرآن، آية الدين . . .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا

وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ [البقرة: ٢٨٢] .

أرأيت إلى العذوبة والتدفق الصوتي وجمال الموسيقى التي تنبعث من
الكلمات؟ أما العجيب فهو أن هذه العذوبة والتدفق والجمال والخلاصة سارية في
الآية من أولها إلى آخرها في تجانس وانسياب لا تحس فيه الأذن نشازاً ولا اختلالاً
ولا خروجاً عن النظم في أى موضع .

قال : وما العجيب في ذلك؟ ففيها مدود طويلة وقصيرة وغنن ثقيلة
وخفيفة وبكل درجاتها .

قلت : ألم أقل لك إن نظريتك خداج؟

قال : كيف؟

قلت : فى الآية سطور يكاد لا يكون فيها مد ولا غنة ، ومع ذلك لو لم
يدقق المرء ويضع عقله كله فى الحروف فلن يدرك هذا الخلو من مصادر الموسيقى
التي ذكرتها، بل ولن يحس بانتقال ولا اختلال من نظم إلى نظم . استمع فقط
إلى قوله : ﴿ فَلَیْکُتَبُ وَلِیُمَلِّلَ الَّذِی عَلَیْهِ الْحَقُّ وَلِیَتَّقِ اللّٰهُ رَبَّهُ وَلَا یَخْسُ مِنْهُ
شَیْئًا ﴾ .

قال : هى كما تقول : اتساق وتجانس وجمال وتدفق صوتي يشد الأذن ويهز
النفس .

قلت : بل والمرء يقرأها يحس أن جسده لو تركه على سجيته يكاد يهتز
على صوت حروفها التي تبدو وكأنها إيقاع صوتي منظم لا مجرد حروف .
قال مترنماً موقعاً : ﴿ فَلَیْکُتَبُ وَلِیُمَلِّلَ الَّذِی عَلَیْهِ الْحَقُّ وَلِیَتَّقِ اللّٰهُ رَبَّهُ وَلَا
یَخْسُ مِنْهُ شَیْئًا ﴾ ، هذا صحيح .

قلت : فأين مصدر هذا النظم العذب والموسيقا الخلاصة والتوقيع السالب
للأذن الأسر للنفس والجسد؟

صمت قليلاً ثم قال : تعرف ! ربما كان السر فيما قلناه من قبل .

قلت : وأى ما قلناه من قبل ؟

قال : رصف الحروف داخل النظم حسب صفاتها ومخارجها ومميزات الصوت الذى يحدثه المخرج وصفة الحرف .

قلت : فهذه الموسيقى تنبعث من ترتيب الحروف فى تلاؤم واتزان صوتى يغنى عن الميزان ، ويكون هذا الرصف الصوتى للحروف هو توقيعها وميزانها .

قال : تماماً ، فهذه الموسيقى وهذا النظم يسيل فى الانتقال الصوتى من حرف إلى حرف ومن كلمة إلى كلمة بهذا الرصف للحروف فى تناسق ونظام حسب صفاتها الصوتية لتعطى قطعة صوتية متلائمة متجانسة .

قلت : فهذا أمر عسير ، فكأنك تقول : إن القرآن رصفت حروفه ونظمت كلماته باعتبار صفاتها الصوتية لتخرج هذه القطع الصوتية المناسبة فى عذوبة وجمال .

قال : تماماً .

قلت : فأين المعانى ؟

قال : ألم أقل لك إنه سبيكة لغوية صوتية واحدة ؟ بدأت تنسى !

قلت : آه ! حقاً .

قال : فمصدر الموسيقى والنظم ليس حرفاً واحداً ولا مقطوعاً بعينه ، وإنما كل الحروف بأصواتها وصفاتها وترتيبها التى هى فيه .

قلت : نظامها الذى هو نظام بغير نظام .

قال : لا تفسير لهذه الموسيقى والنظم التى تنبعث من هذا الرصف للحروف بأصواتها وتختل باختلاله إلا هذا النظام الذى هو بلا نظام . أو لو أردت الدقة : النظام الذى نراه نحن بلا نظام ، لأنه بلا شبيه وغير قابل لترسمه والسير على نهجه .

قلت: إذاً فلا سبيل لمعرفة هذا المصدر الظاهر الخفى للموسيقا والإيقاع الصوتى الخلاب الذى نراه ونسمعه ولا نعرف أين هو بالضبط؟

قال: الوسيلة الوحيدة هى أن تسمع أو تتلو فتعرفه فى تدفق اللسان وفى جمال أصوات الحروف فى ترتيبها الموجودة فيه واختلاله باختلاله، وفى عذوبة المقطوعة الصوتية التى تبعثها بترتيبها هذا.

قلت: ولا طريقة أخرى!

قال: لا أظن ولكن يمكنك التأكد.

قلت: وكيف أتأكد؟

قال: افعل كما فعلت.

قلت: هيه! وماذا فعلت أيها المشاغب؟

قال: هات أى قطعة من النثر واختره بليغاً جميلاً ما شئت ثم حاول أن تتلوه كما تتلو القرآن.

قلت: كما أتلو القرآن؟!

قال: اقرأه بصوت عال بصفات الحروف ومخارجها كما هى فى القرآن وبالقواعد الصوتية لقراءة القرآن.

قلت: سأجرب. ولكن قل لى: ماذا وجدت أنت؟

قال: سخفاً وضيقاً فى اللسان، ونشازاً واختلالاً تمججه الأذن وتتجافى عنه النفس فلا تكمل فيه ولو سطرأ واحداً.

قلت: وماذا يعنى هذا؟

قال: يعنى أن هذه الموسيقا الصوتية والنظم الخلاب الذى ينبعث من الحروف وأصواتها هى خصيصة القرآن وحده، وأن مصدره هو وجود الحروف فى رصفها وترتيبها القرآنى الذى به أنزلت لا مجرد قواعد قراءتها.

قلت: وإذاً؟!

قال : وإذا فمصدر هذه الموسيقى ليس مجرد وجود حروف قد يتوهم ساذج وجودها الصوتي في أماكنها وبترتيبها هذا مصادفة أو فقط لبيان المعنى، وإنما مصدرها هو صفات الحروف ومخارجها وما يحكم قراءتها من قواعد وأحكام في هذا النسق وهذا النظام والرصف الذي رتبت فيه واختيرت له .

قلت : فأى اختلال أو تغيير في صفات الحروف الصوتية أو في نظمها التي هي فيه يذهب الموسيقى والعذوبة والإيقاع والتوقيع .

ابتسمت قائلاً : وهذا يعضد نظريتك المعقولة ... جداً .

قال بابتسامة مأكرة : بدأت تفهمنى . القرآن سبيكة لغوية صوتية تمتزج فيها المعانى بالصوتيات، ولا تفسير لهذا الامتزاج إلا أن هذه السبيكة وجدت هي كما هي، لم تسبق فيها المعانى النظم والموسيقا، ولا النظم والموسيقا المعانى، وإنما هما معاً كما هما . وروعة هذه السبيكة وإعجازها وسرها هو في وجودها كما هي تناسب معانيها في نظمها وأصواتها .

توقف فجأة ثم نظر إلى قائلاً : أراك شردت بعيداً عنى !

التفت إليه قائلاً : إنه لشيء عجيب ! نظام بغير نظام وموسيقا بلا أوزان، تعرف ! وأنت تفيض في نظريتك المعقولة جداً هذه أكاد لا أصدق أو أصدق وأكاد لا أستوعب .

قال مبتسماً : هيه ! ستحرن !

قلت : تريد أن تقطع على الطريق ؟

قال ضاحكاً : وما ذنبى ؟ ألسنت أنت انذى علمتنى الرماية ؟!

إنما أرد لك بعض ما جاءنى منك .

قلت : انتظر حتى أفهم وسأريك .

قال : سأحاول أن أفهمك وأجرى على الله .

إدراك واستيعاب هذا النظم وهذه الموسيقى مسألة شائكة صعبة عليك .

وسبب صعوبتها أنك تحاول أن تفهمها بعقلك ! .

قلت : وهل هناك ما أفهم به غير عقلى؟! ومن الذى يقول هذا؟! أنت!!
قال : نعم أنا! فليس كل شىء يدرك بالعقل . وقد يدرك العقل شىءً ولا
تستوعبه إلا بغيره .

قلت : فما هذا الذى سوف أدرك به وأستوعب هذا النظم والموسيقا غير
العقل؟

قال : أذنك .

قلت : أذنى؟!!

قال : نعم أذنك! النظم والموسيقا أصوات ونغمات لن تستطيع أن تدركها
بعقلك، وإن أدركتها فلن تستوعبها أبداً به وحده . والمعضلة أنك تفكر فى
الأصوات، ولكى تدرك الأصوات ينبغى أن تسمعها بأذنك لا أن تفكر فيها
بعقلك .

قلت : إذا فإدراك هذا النظم الذى بلا نظام والموسيقا التى بلا أوزان لا يكون
إلا بالأذان؟

قال : وبأثر هذا النظم وهذه الموسيقا فى أذنك على نفسك تعرفه منها
وتحسه فيها .

قلت : السماع لا التفكير، الأذن لا العقل .

ابتسمت قائلاً : إذا فهذا هو ما توصلت به إلى نظيرتك المعقولة ... جداً؟!!

قال : اسخر ما شئت ! فهذه هى الحقيقة ولن أتنازل عنها حتى تأتيني أنت
بتفسير آخر أكثر إقناعاً للعقل! .

قلت : إذا هو تحد وإنى ...

قاطعنى قائلاً : أتريد برهاناً على أن التفسير العقلى لهذا النظم والموسيقا
قاصر، وأنت لن تستطيع إدراك وجود هذا النظم وهذه الموسيقا إلا بالأذن والنفس
فقط؟

قلت : برهان؟! وهل عندك برهان!؟

قال مبتسماً: عندي .

قلت : يالسكرتيرك هذا الممل!

قال : قد تجد الجملة أو الآية والآيات فى القرآن تعطيك نظماً خلافاً
وموسيقا آسرة فى أذنك ونفسك، فتعمل فيها عقلك فتجد إيقاعاً منتظماً ونظاماً
صوتياً متشابهاً ووزناً متكرراً يفسر لك جمال النظم فى الأذن وانسياب الموسيقى
فى النفس وتحريكها لها . .

قلت : يبدو أننا سنعود إلى البداية الأولى . وهل هذا دليل يشهد لنظريتك
أم يشهد عليها؟ ثم انتظر! ألم تقل لى من قبل : إنه لا يوجد إيقاع منظم ولا وزن
وإلا أمكن تقليده .

قال : يا قليل الصبر! واحدة واحدة . فإنك لا تمهلنى وأنا لم أتم كلامى بعد .
قلت : أتم كلامك .

قال : ما يشهد لى أيها العجول هو أنك لو أتيت بهذه الجملة أو الآية
والآيات ووضعتها بين أخواتها قبلها وبعدها واستمعت لها جميعاً معاً لما أحست
أذنك اختلافاً فى النظم والموسيقا، ولا فقدت نفسك الإيقاع الأسر لها المؤثر
فيها .

قلت : لا أفهم شيئاً .

قال : فلو تفكرت فى الآيات بعقلك لوجدت الإيقاع المنتظم يوجد لجملة
أو آية أو آيات، وما إن تضع عقلك عليه فيها حتى يختفى من أمامك ويتفقت
من عقلك ولا تجد له أثراً .

قلت : فهتم الآن قليلاً . فالعقل يجد الإيقاع والوزن الذى يفسر جمال
النظم والموسيقا، ثم يختفى هذا الإيقاع وهذا الوزن ويظل النظم خلافاً فى الأذن
والموسيقا مناسبة فى النفس .

قال: فلا تحس الأذن ولا النفس أنه كان ثم إيقاع واختل أو نظم وذهب،
وإنما انسياب وتدفق وجمال وراحة.

قلت: وإذا فوضع العقل في الحروف والكلمات وكده في الإيقاع لا يكفى
لإدراك النظم والموسيقا ولا تفسيرها.
قال: تماماً.

قلت: فهذه عجيبة أعجب! الموسيقا والنظم بالإيقاع والوزن، وهى هى
بدونهما!

قال: هذه هى الحقيقة ولن تدركها إلا بالأذن والنفس.

استمع إلى هذه الآية من سورة القصص:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ
عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

[القصص: ٣٨]

قلت: وأنا أستمع إليها أحس إيقاعاً جميلاً ونظماً عذباً.

قال: فلو تركت أذنك لتتأمل الآية بعقلك لوجدت فيها ما قد يفسر لك
هذا الإيقاع والنظم.

قال: أين هو؟

قال: تأمل جملة ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا ﴾ ،
فستجد فيها إيقاعاً منظماً ومقاطع صوتية متكافئة الزمن ومتشابهة الوقع في
الأذن فى: ﴿ يَا هَامَانُ ﴾ تعطيك موسيقا وتوقيعاً تعرف نظامه فى أذنك،
ويمكنك أن تنقر بأصابعك وتضبط النقر عليه.

قلت: سأجرب.. فأوقد لى يا هامان على الطين.. هذا صحيح.

قال: وستجد هذا النظم السريع فى وسط الجملة تشده جملة صوتية
واحدة فى طرفيها تضبط الإيقاع ببادئة وخاتمة.

قلت : فأين هي هذه الجملة الصوتية؟

قال : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي ﴾ في أول النظم و﴿ فَأَجْعَلْ لِي ﴾ في آخره . فهما جملتان لهما زمن صوتي واحد، وإيقاع ووزن واحد، وصفات صوتية واحدة .

قلت مترنماً : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي فَأَجْعَلْ لِي ﴾ .

قال : ففي الآيات نوعان من الإيقاع والوزن يتداخل أحدهما بالآخر . الأول : هي المقاطع الصوتية القصيرة المتكررة في وسط الآية في ياها وما، والتي تحدث إيقاعاً سريعاً واضحاً لا تخطئه الأذن .

والثاني : الجملة الصوتية الطويلة في طرفيها، والتي تحدث إيقاعاً أبطأ بمثابة بداية تمهيدية ونهاية خاتمة .

قلت : والعجيب أن هذا الإيقاع السريع يختلط بذلك الإيقاع البطيء الذي يمسك بطرفي الجملة دون أن تحس الأذن اختلالاً ولا انتقالاً أو شذوذاً .

قال : والأعجب من ذلك، ثم ابتسم قائلاً : والذي يعضد نظريتي المعقولة جداً، أنك لو أكملت الآية لوجدت الإيقاع البطيء الذي يزن الجملة يكاد يكون مستمراً في الآية في : ﴿ لَعَلِّي ﴾ ، ﴿ وَإِنِّي ﴾ دون الإيقاع السريع، ثم يتفلسف هذا وذاك منك في الآيات التالية . وأنت تسمع فلا تحس اختلالاً ولا نشازاً ولا تفتقد شيئاً مهما كانت حساسية أذنك ونفسك للنظم والموسيقا .

قلت : وإذاً؟!

قال : وإذاً فعقلك غيركاف لإدراك سر جمال هذا النظم وروعة هذه الموسيقا، فهو يفسرها في مواضع، وما يفسرها به يختفى من أمامه في مواضع أخرى وهي هي في الأذن والنفس لم تتغير .

قلت : إن نظريتك المعقولة جداً لتقوى شيئاً فشيئاً .

قال : وأدل من هذه الآية سور جزء ﴿ عَمَّ ﴾ .

قلت : وما فيها؟

قال : تجد في كثير منها إيقاعاً منتظماً تعرفه وتراه، ولكن ما إن تضع يدك

عليه حتى يتفقت منها ويختفى، والنظم هو هو، والموسيقا هي هي، فيعجزك بوجوده كما يعجزك بغيابه.

استمع إلى سورة النازعات:

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ١ - ٥].

لو شحذت أذنيك لما أخطأت مقاطع كثيرة متساوية زمنياً متشابهة صوتياً تتكرر في إيقاع منتظم لا يتغير.

قلت: كيف؟

قال: في كل آية أربع مقاطع صوتية وكل مقطع يتكرر في كل آية هو هو ليعطيك وزناً واحداً يكاد لا يتغير.

وَالنَّا	زِعَاتِ	غَرْقًا	قَا
وَالنَّا	شِطَاتِ	نَشْطًا	طَا
وَالسَّابِحَاتِ	سَبْحًا	سَبْحًا	حَا
فَالسَّابِقَاتِ	بِقَاتِ	سَبْقًا	قَا
فَالْمُدْبِرَاتِ	بِرَاتِ	أَمْرًا	رَا

قلت: هذا صحيح! فهناك أربع مقاطع صوتية في كل آية، وكل مقطع منها يكاد يكون هو هو في الآيات الخمس.

قال: فيعطيك ذلك توقيعاً ووزناً واحداً وإيقاعاً متكرراً لا تخطيء أذن فيه جمال النظم والموسيقا.

قلت: ربما كان ما يساعد على ذلك قصر المقاطع وسرعتها وتكرارها المتوالي، والأذن أقدر على تمييز الإيقاعات السريعة.

قال: أما العجيب حقاً فهو أنك حين تكمل سماع الآيات لا تحس أن إيقاعاً كان موجوداً ثم تبدل، ولا أن ثم وزناً كنت تسمعه ثم اختفى. فالنظم مازال موجوداً والإيقاع متدفقاً جميلاً.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَنَّنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَعْدَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾

[النازعات: ٦-١٤]

قلت: فكان هذا الإيقاع يراوغ السماع.
قال: بل يعجز بوجوده، يحسبه تفسيراً لما يسمعه، ثم يختفى ويتركه حيران لا يدري كيف كان النظم والموسيقا في وجوده، وكيف هما موجودان بعد اختفائه.

قلت: يبدو أنني حقاً سأقتنع بنظريتك المعقولة جداً هذه.

قال: فإذا كنت ستقتنع بنظريتي المعقولة جداً فقد وصلنا.

قلت: وصلنا؟! إلى ماذا؟ ماذا تفعل؟

قال: ألملم أوراقى.

قلت: أعتزمت فراقى؟

قال فى دعة: أما قلنا إنه لقاء فى فراق وفراق فى لقاء؟

قلت: فلن أراك ثانية؟

قال: هيهات!

ما هذه الدموع التى أراها تترقق فى عينيك يا رجل؟

هيا هيا! فأنا لا أحب الوداع الطويل.

قلت: فيالى أين أنت ذاهب؟

اقترب منى فى خطى وئيدة ثم قال:

سأعود من حيث أتيت، وأستقر حيث كنت.

ثم ابتسم قائلاً:

إلى حين.

* * *

المصادر والمراجع

- ١ - التفسير البياني : بنت الشاطىء .
- ٢ - تفسير القرآن العظيم : ابن كثير .
- ٣ - الجامع لأحكام القرآن : القرطبي .
- ٤ - روح المعاني : الألوسى .
- ٥ - فى ظلال القرآن : سيد قطب .
- ٦ - الكشاف : الزمخشري .
- ٧ - مفاتيح الغيب : الفخر الرازى .
- ٨ - الاتقان فى علوم القرآن : السيوطى .
- ٩ - البرهان فى علوم القرآن : الزركشى .
- ١٠ - تاريخ القرآن : الزنجانى .
- ١١ - تاريخ القرآن : عبد الصبور شاهين .
- ١٢ - الجمع الصوتى الأول للقرآن : لبيب السعيد .
- ١٣ - نكت الانتصار لنقل القرآن : الباقلانى .
- ١٤ - الأحرف السبع : قضية علمية : عبد الفتاح شلبى إسماعيل .
- ١٥ - المقنع فى رسم مصاحف الأمصار : أبو عمرو الدانى .
- ١٦ - البدور الزاهرة : عبد الفتاح القاضى .
- ١٧ - النشر فى القراءات العشر : ابن الجزرى .
- ١٨ - الإعجاز البيانى : بنت الشاطىء .
- ١٩ - إعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعى .
- ٢٠ - بيان إعجاز القرآن : الخطابى .
- ٢١ - دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى .
- ٢٢ - الرسالة الشافية فى الإعجاز : الجرجانى .

- ٢٣ - الظاهرة القرآنية : مالك بن نبي .
- ٢٤ - المعجزة الكبرى القرآن : محمد أبو زهرة .
- ٢٥ - من إعجاز القرآن فى أعجمى القرآن : رؤوف أبو سعدة .
- ٢٦ - النكت فى إعجاز القرآن : الرماني .
- ٢٧ - النبأ العظيم : محمد عبد الله دراز .
- ٢٨ - إعراب القرآن : الزجاج .
- ٢٩ - ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان : ابن المرتضى اليماني .
- ٣٠ - التصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب .
- ٣١ - درة التنزيل وغرة التأويل : الخطيب الإسكافى .
- ٣٢ - كشف المعانى عن مشابه المثانى : بدر الدين بن جماعة .
- ٣٣ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : محمد فؤاد عبد الباقي .
- ٣٤ - المفردات فى غريب القرآن : الراغب الأصفهاني .
- ٣٥ - من أسرار حروف الجرفى القرآن : محمد الأمين الخضرى .
- ٣٦ - سنن ابن ماجة .
- ٣٧ - سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطى وحاشية السندى .
- ٣٨ - صحيح البخارى .
- ٣٩ - صحيح مسلم بشرح النووى .
- ٤٠ - مسند الإمام أحمد بن حنبل .
- ٤١ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث : ونسك - محمد فؤاد عبد الباقي .
- ٤٢ - تاريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرافعى .
- ٤٣ - الخصائص : ابن جنى .
- ٤٤ - شرح شذور الذهب لابن هشام : محمد محى الدين عبد الحميد .
- ٤٥ - فى شرف العربية : إبراهيم السامرائى .
- ٤٦ - لسان العرب : ابن منظور .
- ٤٧ - إبراهيم أبو الأنبياء : العقاد .

- ٤٨ - الأبطال : توماس كارليل .
- ٤٩ - تاريخ الإسلام : الذهبى .
- ٥٠ - حياة محمد : محمد حسين هيكل .
- ٥١ - السيرة النبوية : ابن هشام .
- ٥٢ - الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى : القاضى عياض .
- ٥٣ - محمد الرسالة والرسول : نظمى لوقا .
- ٥٤ - الوحى المحمدى : رشيد رضا .
- ٥٥ - الله : العقاد .
- ٥٦ - تفسير سورة الإخلاص : ابن تيمية .
- ٥٧ - شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية : محمد خليل هراس .
- ٥٨ - العقل والدين : وليم جيمس .
- ٥٩ - فصل المقال فى ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال : ابن رشد .
- ٦٠ - معيار العلم : أبو حامد الغزالى .
- ٦١ - صوت الشاعر القديم : مصطفى ناصف .
- ٦٢ - فى الشعر الجاهلى : طه حسين .
- ٦٣ - أصول الصابئة ومعتقداتهم : عزيز سباهى .
- ٦٤ - ديانة الساميين : روبرتسون سميث .
- ٦٥ - العقيدة والشريعة : جولد تسيهر .
- ٦٦ - الكتاب المقدس : أسفار التوراة والأنجيل وأعمال الرسل .
- ٦٧ - محاضرات فى النصرانية : محمد أبو زهرة .
- ٦٨ - فجر الإسلام : أحمد أمين .
- ٦٩ - قصة الحضارة : ول ديورانت .
- ٧٠ - المقدمة : ابن خلدون .

* * *